مقدمة

فى مسجد مولانا الحسين رضى الله عنه . فى شهر رجب من سنة ١٣٨٧ هـ ، احتفلت جمهورية مصر العربية عن طريق التليفزيون – فى برنامج نور على نور – بليلة الإسراء والمعراج ، مشاركة بذلك العالم الإسلامى كله ، ومعبرة بهذا الوضع عن الأهمية الكبرى التى لهذه الليلة المباركة .

وقد حضر الحفل كثير من كبار السادة المسئولين فى مختلف الوزارات وفى الأزهر . وقد دعانى المشرفون على البرنامج – مشكورين – للحديث مع من دعى فى تلك الليلة المباركة . وانتهزتها فرصة لأقول رأيى بصراحة ، فى نقطة من هذا الموضوع ، حيث أتيح إعلانها فى أوسع دائرة ممكنة من المستمعين فى المسجد ، ومن المشاهدين على الشاشة .

* * *

لقد كان المعراج مناجاة ، ووحياً ، ورؤية :

أكانت المناجاة مع جبريل عليه السلام ، والوحى من جبريل عليه السلام ، والرؤية لجبريل عليه السلام ؟

أم كانت المناجاة مع الله سبحانه وتعالى ، والوحى من الله تعالى ، والرؤية لله تعالى ؟

لقد قلت فى حديثى :

إن محمداً ﷺ ، وصل إلى أفق لم يعد فيه مكان لجبريل ، وارتقى إلى مستوى من النور لم يكن لجبريل عليه السلام فيه مجال ، فكان محمد ﷺ فى الحضرة الإلهية ، دون واسطة .

فناجى محمد عليه الصلاة والسلام ، ربه عز وجل .

وأوحى إليه ربه ما أوحى .

ورأى محمد ربه .

(ما كذب الفؤاد ما رأى) .

واستندت إلى ما جاء فى حديث البخارى :

ثم دنا الجبّار ربّ العزة فتدلى ، فكان منه قاب قوسين أو أدنى .

وقلت : إنّ محمداً ﷺ ، فى هذا الأفق كان وحده وكان جبريل عليه السلام فى أفق أقل ، فكانت المناجاة مع الله .

وكان الوحى من الله .

وكانت الرؤية لله تعالى .

ولم يستغرق حديثى أكثر من ربع ساعة ، قلت فيها — فى لمحات خاطفة — كل ما كنت أريد أن أقول ، فى الموضوع عامة وفى هذه النقطة خاصة .

ثم نزلت من على المنصة ، وكأننى قد تخففت من حمل ، وكأننى قد برئت من مسئولية .

وظننت أن الأمر قد انتهى ، وأنني قد أسمعت ، وأن الكلمة ستأخذ مجراها ، وأن الله سيفتح لها آذاناً ، ويشرح لها صدوراً .

* * *

وما إن انقضى الحفل ، حتى التفّ حولى كثير من ذوى البصائر الرشيدة ، يرجون أن أكتب فى الموضوع ، أفصل ما أجملت وأستفيض فيما كان أشبه بلمحات ، وأوضح هذا الذى وقع من أنفسهم موقع الاستحسان والغرابة فى آن واحد ، من أن محمداً ، ﷺ ، وصل إلى أفق كان فى الحضرة الإلهية وحده دون حجاب .

وعددت هذا منهم مجاملة ، قابلتها بمثلها ، وشكرت لهم حسن ظنهم .

ورجوت من الله التوفيق لى ولهم .

ولكن الحديث عن الموضوع استمر ، وكثر طلب الناس هنا وهناك للكتابة فى هذا الموضوع فى صورة أوسع وفى زواياه المتعددة .

وحفزنى هذا إلى العودة إلى الموضوع من جديد .

لقد عدت إلى القرآن الكريم وتفسيره فى مختلف التفاسير ، وخصوصاً تفسير الإمام ابن كثير فى موضوع الإسراء والمعراج ، وكذلك تفسير الإمام الألوسى ، وحاشية الإمام الصاوى ، وإلى صحيح الإمام البخارى ، وشرح الإمام ابن حجر له ، فى مختلف الأمكنة التى تحدث فيها عن الإسراء والمعراج .

وإلى صحيح الإمام مسلم ، وشرح الإمام النووى له .
وإلى الخصائص الكبرى للإمام السيوطى .
وإلى الشفاء للقاضى عياض .
وإلى كتب السيرة . وخصوصاً سيرة ابن هشام وتعليق السهيلى عليها .
ولقد نعمت بفترة من البحث أحمد الله عليها .

* * *

وما من شك فى أننى لم أخترع رأياً ولم أبتدع فكرة ، ولم أجئ بما لم يكن موجوداً ، وكل ما فى الموضوع أننى حاولت فى هذه النقطة – التى كانت مثار سؤال وبحث – أن أبرز ما حاول البعض المرور عليه مروراً عابراً ، وأن أظهر مالم يكن البعض يقف عنده ، وأن أعلن عما كان موجزاً لا يكاد يبين عنه بعض الكاتبين .
لست إذن بدعاً فى الرأى ، ولا مبتدعاً فيه .

* * *

على أن هذه النقطة التى كانت مثار بحث ليست أبرز شىء فى هذا الكتاب ، بل إنها لم تستغرق منه مكاناً كبيراً ، لقد أردت على الخصوص أن أبين أن قصة الإسراء والمعراج إنما تمثل :
١ – منهج حياة فى العقيدة .
٢ – منهج حياة فى الأخلاق .
إنها منهج الحياة الروحية فى حياة المسلم .

وهذه النقطة بالذات هى التى استفضت فيها ، والتى أرجو أن أكون قد صاحبنى فيها التوفيق .

* * *

إن بعض المسلمين يحتفلون بهذا الحادث ، على أنه حدث تاريخى مجيد ، ثم يمرون به على أنه معجزة وقعت لسيدنا محمد ﷺ ، فأظهرت ما له من فضل ، وبيّنت ما له من مكانة ، فإذا ما شرحوها من هذا الجانب : فكأنهم قد أوفوا الموضوع حقه .

وقالوا فيه ما يمكن أن يقال .

ولكن أمر الإسراء والمعراج : أوسع وأعم من أن يكون حدثاً تاريخيًّا ، انقضى وانتهى . وذلك أنه رسم لحياة المسلم ، وفيه من العظات والعبر مالا يكاد يحيط به الإنسان . وسنحاول بتوفيق الله أن نكتب عنه فى هذه الجوانب والزوايا .

والله نرجو أن تمتد لهذا الكتاب الأعين ، وتتفتح له الآذان ، وأن يشرح الله له الصدور ، وأن يهدى له ، وأن يهدى به ، إنه سبحانه قريب مجيب .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .